Dirassat & Abhath
The Arabic Journal of Human and Social Sciences

مجلة دراسات وأبحاث
المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية

EISSN: 2253-0363
ISSN : 1112-9751

النظام الصحي والطبي في دولة الأمير عبد القادر الجزائري خلال الحقبة الاستعمارية

Title in The health and medical system in the state of Emir Abdelkader al-Jazairi during the colonial era

محمد بن عدي، mohammed benaddi

طالب دكتوراه، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان، كلّيّة العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، مخبر الدّراسات الحضارية والفكرية

mohammed.benaddi@univ-tlemcen.dz

تاريخ الاستلام: 2021-10-17 **تاريخ القبول :** 2021-10-23

الملخص:

يعتبر الجانب الصحي للأفراد من المقومات الأساسية للمجتمعات فهي مطلب أساسي من مطالب الحياة، وهي أيضا ضرورة من ضرورات التنمية، فالإنسان الذي تتكامل له صحة نفسية وجسمية هو الإنسان الأقدر على العمل والإنتاج وتحقيق أهداف التنمية.

إنّ القارئ عن حياة وشخصية الأمير عبد القادر يَعي تماما أنّه كان منشغلاً في وقت واحد بمقاومة الاحتلال والوجود الفرنسي للجزائر، وبالتفكير في بناء صرح دولة جزائريّة بمقومات عصريّة بالاستناد إلى مبادئ ذات قوائم قويّة تتكيّف مع الاضطرابات والفوضى وحالة الدمار والحرب التي كانت تعيشها البلاد، وذلك بإنشاء مؤسسات مدنية وعسكرية فعّالة وقوية متماسكة وغير منشقة، تعمل على تحقيق السلم وإقرار النظام والانضباط وتفرض على الشعب سلطة الدولة وهيبتها بإنصاف ونزاهة بأسلوب فعال وكفء.

فالنموذج الصحّي في دولة الأمير عبد القادر اهتم منذ البداية بمناقشته للقضايا العامة والنوعية خاصة فيما يتعلق بالنظم الصحية واستراتيجيات وسياسات الرعاية الصحية والطبية واعتمد في ذلك عددا من الأدوات والوسائل كان من أهمها إنشاء المستشفيات (المراكز الصحيّة، التعليم الطبي، الخدمات الاستشفائية، الممارسات الطبية...).

الكلمات المفتاحية: النظام الصحّي؛ الأمير عبد القادر؛ الجزائر؛ الاستعمار الفرنسي؛ المراكز الصحيّة.

Abstract:

The health aspect of individuals is one of the basic components of societies and is a fundamental requirement of life, and it is also a necessity for development, as a person with integrated mental and physical health is the person best able to work, produce and achieve development goals.

The reader of the life and personality of Emir Abdelkader is well aware that he was simultaneously preoccupied with resisting the occupation and the French presence of Algeria, and of thinking about building the edifice of an Algerian State with modern components based on principles with strong lists adapted to the unrest, chaos, destruction and war that the country was experiencing, by establishing effective, strong, coherent and non-dissident civil and military institutions that work to achieve peace, establish order and discipline and impose on the people the authority and prestige of the State in an effective and efficient manner.

The health model in Emir Abdelkader state was concerned from the outset with its discussion of general and qualitative issues, particularly with regard to health systems, health care and medical strategies and policies, and adopted a number of tools and means, the most important of which was the establishment of hospitals (health centres, medical education, hospital services, medical practices...).

Keywords: Health System, Emir Abdelkader, Algeria, French Colonialism, Health Centers.

مقدمة:

لقي التاريخ السياسي والعلمي للجزائر على مستوى العصور نصيبا وافرا في مختلف المواد العلمية سواء كانت مصادر أو مراجع بما فيها الدراسات الأكاديمية، في حين لم تحظى مجالات عديدة بهذا الاهتمام، ولم تلق حيزا واسعا للبحث، ومن بين تلك المواضيع النظام الصحي للمجتمع الجزائري في الفترة المعاصرة عامة، وفي عهد الامير عبد القادر خاصة، فبالرغم من وجود بعض الكتابات التي تؤرّخ للواقع والنظام الصحّي في دولته، إلاّ أنّ هناك قصورا في المعلومات التي تقدم صورة واضحة ومتكاملة عن الهيكل البنيوي والوظيفي لنظام الصحة والطب في دولة الأمير، ومع ذلك أجمع العديد من المؤرخين على أنّها في حيثياتها وإشاراتها ما يدل أنّ الأمير عبد القادر كان يُفكّر في إنشاء نظام صحي عصري في الجزائر، أو من خلال تحديث وتطوير الطرق والتقليديّة للعلاج من الأمراض في الجزائر، والتخطيط لمدرسة طبية جزائريّة، وعليه نتساءل بدورنا كيف كان موقف الأمير من الجانب الصحّي في دولته وماهي الهياكل التي اعتنى بها ضمن هذا القطاع؟

أولا: مفهوم النظام الصحي:

هو عبارة عن مجموع المؤسسات والمنظمات والموارد، والتي تُعد من أهم المكونات الأساسية في تحسين الصحة، وتكون هذه المؤسسات ممولة من جهات مختصة تهدف الى حماية الفرد والمجتمع بما يتوافق مع احتياجات الأفراد الصحية[1].

ثانيا: واقع الصحة في دولة الأمير عبد القادر:

شهدت الجزائر في عهد الاستعمار الفرنسي، تدهورا في الحالة الصحية لسكان البلاد، حيث تفاقم انتشار الأمراض والأوبئة نتيجة لعدة أسباب أهمها الاستعمار الفرنسي للمنطقة وما ترتب عنه من ظهور للفقر وسط التجمعات السكانية، إضافة إلى تلوث الطبيعة نظرا لاستعمال الأسلحة من قبل المستعمر، وما ترتب عنه من انهيار للاقتصاد نتيجة لفقدان الناس لأراضيهم وبالتالي انتشار البطالة وسوء التغذية داخل الأسر الجزائرية[2].

كل هذه العوامل كان لها الأثر البليغ في تفاقم وتدهور الوضعية الوبائية لسكان البلاد، مما جعل الأمير عبد القادر يفكر في إنشاء منظومة صحية من أجل الحفاظ على صحة المواطنين، رغم نُدرة المصادر التي تؤكد أنه أسس هذه المنظومة، لكن هنالك العديد من الأدلة التي تبرهن على وجود مثل هذه الإدارة بإمارته وتتمثل في تشكيل الأمير عبد القادر للعديد من الوزارات، فقام بتوزيع المناصب على شخصيات أكفاء وهم : محمد بن العربي وزيرا للداخلية، وأنيط ومنصب وزارة الخارجية للميلود بن عراش، ووزير الحربية محمد الجيلالي، ووزير المالية العامة بن فريحة، أما وزير المالية الخاصة فهو محمد بن فاخة، وزير الأوقاف الطاهر أبو زيد، وزير العشور والزكاة الجيلالي العلوي بن هداية[3].

كما قام بإنشاء العديد من المصالح الإدارية، وتتمثل في: كتابة الديوان الأميري: الفراشة، السقاية، الملبوس الأميري، حمل الشمسية، ورئاسة الموسيقى[4].

كل هذا يدل على أنه وجدت منظومة صحية في دولة الأمير عبد القادر، فمن غير المعقول أن شخصية ذكية مثل الأمير الذي انتبه إلى أبسط أشياء الدولة كالملبس والموسيقى لا يفكر في العناية الصحية لأفراد مجتمعه.

ثالثا: السياسة الصحيّة في دولة الأمير عبد القادر:

فنص هذه المادة يُجسَّمُ في أذهاننا الحالة التي كان عليها النظام الصحي في دولة الأمير عبد القادر من حيث:

1-وجود مراكز صحية تأوي المرضى، وتكفل لهم جميع الحاجيات (الفراش، الطعام، العناية الطبيّة)[5].

2-اخضاع عملية توظيف الممرضين لشروط أدبية ومادية (النباهة، الأدب، طلاقة الوجه، اتساع الخاطر)، حتى لا تضيق نفوس المرضى بهم.

3-العناية بترقية المستوى المعرفي والمهني للممرضين تحت إشراف الأطباء الجراحين.)

4-تأمين الدولة لتكاليف الأطباء والممرضين (اللباس الخاص، الراتب الشهري، التموين بالمواد الغذائية اللازمة... بما يكشف أن الأمير عبد القادر قد جعل من الرعاية الصحية للمواطنين والجنود واجبا مفروضا على الحكومة)[6].

5-الاهتمام بمكانة الطبيب وذلك من خلال: وجود لباس موحد وخاص لهم، يصنع من الجوخ الجيد، ويتقاضون مرتبا شهريا ثابتا يساوي اثنتي عشرة ريالا (من بيت المال)، إضافة إلى ربع شاة من اللحم كل يوم اثنين وخميس، ورغيفان من الخبز الأبيض أو رطلان من الدقيق كل يوم، وأوقيتان من السمن أو الزيت، وكيلوغرام ونصف من الخشب يوميا[7].

كما حظي الممرضون هم الآخرون بمميزات، منها حصولهم أجرة شهريّة من بيت المال تتناسب مع خبرتهم[8].

أمّا برينو ايتيان فقد أورد لنا مقالا جاء فيه أنّ الأمير عبد القادر كان أمينا لتقاليد الطب الأندلسي، وقد شكّل فرقا طبية ومستوصفات تطبق في كل مكان، عملا بما ورد في الكتب المقدسة أنّ كل سلطان لا يُنشر فن الاستشفاء في سلطنته يعتبر عاصيا للخالق[9].

1/المستشفيات (المراكز الصحية): أنشأ الأمير عبد القادر مستشفى في كل مقاطعة إدارية، إضافة إلى مستشفى في بوغار وآخر في الزمالة[10]، ويؤيّد هذا القول ما كتبه محمد بن الأمير عبد القادر في التحفة، أن والده قد أحدث مكانا معروفا عند ملوك المغرب وهو إنشاء المستشفيات لمرضى جنوده في مخالق المقاطعات.

وقد عين الأمير عبد القادر في كل مستشفى أربعة أطباء يرجع أمرهم إلى طبيبه الخاص أبو عبد الله الزروالي، الذي شهد له أهل الخبرة بالمهرة في علم الطب، فلم يكن على نمط الأوروبيين في علمه، أو متخرجا من مدرستهم، يقول عنه صاحب التحفة: "نحن لا نعلم أين تمهر في هذه الصنعة، ولعله إنما وصل إلى ذلك عن طريق الوراثة والتجربة[11].

وكان عالما بخواص الأعشاب على اختلاف أصنافها، وكان يخرج الرصاصة من داخل العضو المصاب بوضع عشب على مدخله، فيخرج بعد بضع ساعات من موضعه بسهولة[12].

أكدّ ذلك الفرنسيون الذين زاروا معسكرات الأمير فكاب توستان دي منوار سنة 1841 ذكر أن في جيش الأمير طبيب بلقب باش جراح (كبير الجراحين) [13].

ويؤيد أدريان بيريروجر نفس هذه الملاحظات تقريبا، وهو الذي زار معسكر الأمير على رأس وفد هام سنة 1837. وقد تحدث الأوروبيون عن بعض هؤلاء الأطباء الشعبيين، فالضابط ريتشارد سجّل قائمة بأسمائهم، وقال هم ليسوا من خرجي المدارس بل كانوا لا يعرفون حتى القراءة والكتابة، وإنّما كانوا يتعلمون بالوراثة والملاحظة ولهم ذكاء فطري، والأمير عبد القادر نفسه يعترف بأنّهم لا يتمتعون بتعليم عال[14].

معنى هذا أن الطب في دولة الأمير عبد القادر ارتكز الطب الشعبي، وأن أغلبية الأطباء ليسوا متخصصين في مهنتهم، وإنّما كانوا يتمتعون بخبرة كافية تؤهلهم لمعالجة الأمراض، غير المعقدة كتضميد الجروح وتجبير العظام، وعند حصول مشكلة تتعدى معرفتهم كانوا يستشرون طبيب العاصمة أبي عبد الله الزروالي.

وبالإضافة الى المراكز الصحية التي انشأها الامير عبد القادر فقد قام الفرنسيون بإنشاء العديد من المراكز الصحية بالمناطق التي احتلوها سنة 1843م، وقد عددها بسبع وعشرين مركز صحي، منها خمسة عشر مركزا في إقليم الجزائر الوسطى، وخمسة مراكز في إقليم وهران، وسبعة في إقليم قسنطينة، إلا أنّ هذه المستشفيات لم تُقدّم خدمات صحية للجزائريين ففي سنة 1835م، حصد الموت 1500شخص من بين 10.000 شخص من مدينة معسكر لوحدها، بسبب مرض الكوليرا (الإسهال) وهذا بإقرار الفرنسيين أنفسهم[15].

كما أنّه لم يكن للجزائريين (في الماضي)، مستشفيات عامة أو مشتركة فكانوا يلتحقون بملاجئ في المساجد، ينزل بها المرضى والعجزة وكان لديهم مؤسسات خيرية (الوقف) لرعاية هذه الأماكن[16].

وقد اجتهد الأمير عبد القادر في هذا المجال، وأعطى أمرا للجيش بتوفير الأطباء والجراحين وجميع وسائل المحافظة على الصحة، وتوفير العلاج والراحة للجنود.

وفي خطبته التي ألقاها بعد الهزيمة التي ألحقها بلاموريسيار في ضواحي تاقدمت قال الأمير عبد القادر:" وصلتني أخبار عن حشود هائلة تحركت نحو حصن سبدو، وحماتنا استطاعوا صدّ ذلك الهجوم، ولكن التفاوت الكبير في العتاد والجند أنهك قوادهم وبينهم الآن عدد كبير من الجرحى، وعلينا الآن وبسرعة تفقد الحصن وتأمين احتياجاته، ونقل الجرحى إذا أمكن إلى الزمالة ".

يفهم من هذا النص أنّ الزمالة مدينة الخيم كان بها مستشفى ميداني.

2/التعليم الطبي في دولة الأمير عبد القادر:

في إحدى زياراته الميدانية التي اعتاد الأمير عبد القادر القيام بها، وذلك رفقة وفد يتألف من القادة العسكريين والعلماء والأطباء زار الأمير عبد القادر المستشفيات في المناطق التي مازالت تحت سلطته[17]. فوقف أمام أطباء أحد المشافي وخاطبهم بقوله: "عليكم نقل العلوم الطبية في معاهدكم إلى الطلاب المتفوقين في العلوم والاهتمام بعلم النبات وتركيب الأعشاب "إلى أن يقول لهم" لقد دفعت

الأموال الطائلة من موارد مزارع عائلتي لشراء كتب طبية لعلماء عرب ومؤلفات بن سينا، وابن البيطار، والصوري، وأبو القاسم الزهراوي[18].

هذا النص الخطابي الموجّه للأطباء يكفينا سندا ودليلا بأنّ الأمير عبد القادر شديد الاهتمام بالتعليم الطبي، والحرص على نقل معارفه للطلبة المتفوقين، وهو صرخة جادة ودعوة للأطباء الجزائريين للعمل بجدية والاعتماد على أنفسهم في تركيب الأعشاب وصنع الأدوية، وكأنّه كان يريد بذلك إنشاء مخابر للبحث الطبي بمفهومنا المعاصر، ودفع به إيمانه القوي، بوجوب تعليم علوم الطب إلى التضحية بمال عائلته من أجل توفير الكتب الطبيّة.

ويعترف بير تيراند أنه كان للجزائريين كتب في الطب، ولكن الاحتلال أدّى إلى نهبها، فقد كان باي قسنطينة (صالح باي) قد أوقف عدّة كتب في الطب على الزوايا مثل المذكرة **لداود الانطاكي** وكتاب **أحمد زروق الفاسي**، ولكنّها اختفت بعد احتلال المدينة[19].

وكم من الكتب الشائعة التي كان الجزائريون يعودون إليها في مجال الطب والتي كانت كثيرة الانتشار في الجزائر:

- كتاب الطب.
- الرحمة في الطب والحكمة للسيوطي[20].
- تحفة الأديب عندما لا يحضر الطبيب لمحمد الجيلالي.
- رسالة في الطب لمحمد العياشي (أبي عبد الله).
- كتاب داود الأنطاكي في الطب (المصري).
- ذهاب الكسوف في الطب لعبد الله بن عزوز المراكشي[21].

وقد لاحظ الطبيب بير تيراند صاحب كتاب " الطب والنظافة الصحية عند العرب" الذي عمل في مختلف المكاتب العربية بين 1848-1853 بأنّ دراسة الطب وعلومه من صناعة للأدوية وغيرها قد تخلّف عند الجزائريين بعد الأمير عبد القادر، وما يُشد انتباه القارئ هنا، هو شهادة هذا الطبيب الأجنبي بأنّ الجزائر في عهد الأمير عبد القادر شهدت نهضة فعلية في مجال الطب[22].

وقد صمم الأمير عبد القادر على تأسيس مدرسة للطب تشمل جميع الاختصاصات لكن عمر إمارته القصير جدا وقلّة الأموال في خزينتها، حال دون تنفيذ حلمه ولو أتيحت له الظروف لتحقيق ذلك لكان فعلا السبّاق في الميدان في المغرب العربي[23].

3/الخدمات الاستشفائية:

انقسم الطب في عهد الأمير عبد القادر إلى نوعين: الأول هو الطب الشعبي الذي كان سائدا، حيث كان العامة من الناس يكثفون بالتداوي بالأعشاب وإلى ما يسمى بالطب النبوي وكتابة الآيات القرآنية والحروز، واللجوء إلى الدراويش والسّحرة الذين كانوا يعالجون بالتمائم والرقي والعزائم[24].

أمّا الخاصّة والمسؤولين فكان لهم أطباؤهم الخاصين فمثلا: حسين باشا – آخر دايات الجزائر – كان له طبيب خاص من أصل إسباني، وآخر من أصل ألماني، وكان لباي قسنطينة الحاج أحمد باي أيضا أطباؤه منهم إيطالي، قيل أنّه عالجه عدّة سنوات ثم كتب له وصفا لحياته وملامحه[25].

وقد اشتهر الأطباء الشعبيون عهد الأمير عبد القادر في الجزائر بالحجامة والكي والختان وجبر الكسور، وعلاج لدغة العقرب، وعضة التعبان، وخلع الأسنان، أمّا المستشفيات التي أنشأها الأمير عبد القادر، والتي أوصى القائمين عليها بالانشراح أمام المريض واحترامه وحسن معاملته، فكانت توفر للمريض جميع حاجياته (كما أشرنا إليه سابقا).

وقد وُظف فيها إلى جانب الأطباء ممرضون تتوفر فيهم شروط منها: المهارة واللياقة، وحسن الاستقبال والرصانة، وكذلك أفراد من القوات العسكرية يضمنون الحراسة والأمن بالمراكز الصحية ويسعفون المرضى.

ومن الأمور التي تدل على أن الأمير عبد القادر كان أولى الناس عناية بالمرضى والجرحى واسبقهم إلى التكفل بهم، الانفاق من ماله الخاص عليهم، وهذا ما شهد له به معاصروه والمقربون إليه من الأجانب أمثال **شارل هنري تشرشل" إن** الأمير كان ينفق مما استبقي له من المال القليل على الفقراء، وعابري السبيل، وبوجه أخص رفاقه

في السلاح ممن جرحوا اثناء المقاومة في الحرب المقدسة، والذين هم في حاجة إلى المساعدة[26].

لم يكن الامير عبد القادر لوحده الذي يقوم بمساعدات لأفراد مجتمعه فقد اشتهرت والدته "لالة الزهرة"، هي كذلك بمثل هذه الاعمال الخيرية، فكان يضرب بها المثال في توفيرها الأمن والرعاية الصحية للسجينات لاسيما المريضات منهن، بحيث كانت تقدم لهن بنفسها صباح كل يوم كميات من الزيت والزبدة، واللحم، ومواد غذائية مختلفة؛ ويذكر هنري تشرشل: "أن إحدى السجينات مرضت فضمتها إليها وحنت عليها وحملت لها الشاي والسكر والقهوة، فكانت تعمل بما في وسعها لإسعاف السجينات واسعادهن وتوفير الراحة لهن[27].

ولقد ذهب الأمير عبد القادر بسمو أخلاقه وتشبعه بالروح الإنسانية إلى حد التسامح حتى مع أعدائه المرضى ممن وقعوا في الأسر بين يديه، ولعل العودة إلى تصرفاته مع فرحات بن سعيد تضع بين أيدينا نموذجا لهذا التسامح.

لم يكن في استطاعة الأمير عبد القادر أن يتغاضى عن فرحات بن سعيد المعترف بالسيادة الفرنسية على إقليم قسنطينة، والذي اقترح المارشال فالي على الملك الفرنسي لويس فيليب الأول تعيينه بايا أو باشا سنة 1838 لإدارة إقليم قسنطينة مكان أحمد باي، وليضرب به-أيضا-امتداد نفوذ الأمير عبد القادر في الشرق الجزائري باسم فرنسا[28].

فألقى عليه خليفة الأمير البركاني بمقاطعة التيطري، وألقى القبض وسلمه للأمير بتاقدمت بعد ثمانية أيام من السير، وقد انكشطت وتورمت قدماه المربوطتان تحت بطن البغل الذي كان يحمله، بحيث لم يستطع الوقوف[29].

فاعتنى به الأمير عبد القادر وكان يبعث إليه يوميا بالطبيب الفرنسي الدكتور فأرني ليضمد جراحه، لكن العلاج كان بطيئا بسبب استمرار تقيّح الجراح[30] وكذا بسبب تهديد فرحات بن سعيد للطبيب بخنقه.

وعليه عيّن الأمير عبد القادر طبيبا عربيا يتولى علاجه ولم يَمثل أمام المحكمة إلا بعد أن شُفي تماما من جراحه، وصار في حالة صحية جيدة، ورغم اعترافه بمراسلته مع الجنرال نيقربيNegrier، وعرضه لخدماته على فرنسا، فإن الأمير عبد القادر خفف عليه الحكم من الإعدام إلى سجنه لمدة سنة واحدة[31].

إن هذا النموذج يمنحنا فرصة التعرف على الجانب الأخلاقي للأمير عبد القادر وثقافته الإنسانية، حتى بالذين خانوا الوطن، من أبناء هذا الشعب فقد كان التسامح شرعته ومنهاجه.

استعانة الأمير عبد القادر بالأطباء الأجانب: لم يكتف الامير عبد القادر بوجود اطباء من الخواص ومن عموم المجتمع الجزائري فقد استعان بعدة أطباء أوروبيين.

وفي المثالين التاليين نموذج لاستعانة الأمير عبد القادر بأطباء أجانب من بينهم الطبيب الذي كان يقيم في معسكر أثناء الهدنة (1837-1838).

المثال الأول: يذكر أن والدة الأمير عبد القادر لالة الزهرة قد مرضت ذات مرة في مليانة وهو بعيد عنها، ولما سمع بذلك توجه إليها بسرعة فقطع خمسة عشر كيلومتر في ظرف قياسي[32].

ويقول عنها الفرنسيون أنها الوحيدة التي لبست الجوارب والقفازات الصوفية البيضاء التي أرسلها اليها الطبيب الفرنسي في معسكر، بعدما أرسلت تطلب علاجا من البرد الذي أصابها، وحين وصلتها الجوارب والقفازات من الطبيب لبستها من دون تحفظ[33].

المثال الثاني: بعثت عائلة الأمير عبد القادر الى الدكتور فارني للالتحاق فورا إلى أحد الدواوير (لم يذكر اسمه) ليمنح العلاج للابن الوحيد للأمير عبد القادر الذي كان يحتضر.

وعلى الرغم من خطورة اجراء العملية الطبية، وما قد ينجر عن فشلها من أثر على البعثة الدبلوماسية الفرنسية بمعسكر، وعلى السلم بين الجزائر وفرنسا، فإن الدكتور فارني لم يتردد عن الدعوة التي وجهت إليه، وقطع مسافة الفراسخ الأربعة التي كانت تفصل بين معسكر والخيمة التي كان يوجد فيها المريض على صهوة فرسه.

فبلّغ والدة المريض بخطورة حالته الصحية، وكأنه يُلقي عليها اللوم عن تأخرها لدعوته، وجال في فكره أنه في حالة موت ابن الأمير عبد القادر بين يديه فإنه لم يمنع من تهمة تسميمه والتعمد في قتله فاتخذ جميع الاحتياطات واستخدم فقط الادوية الخارجية التي تم تحضيرها من طرف عائلة المريض، وذلك بحضور الحاج الجيلالي مقتصد الأمير عبد القادر وموظفين آخرين، فأجرى له العملية وانصرف وقد شكرته العائلة على ذلك[34]، وبعد ثلاثة أيام تمكن المريض من الوقوف على رجليه إلا أن هذا النجاح أعقبه خبر تلقاه الدكتور فارني مفاده أن المريض قد انتكس، فأسرع إليه فوجد حالته الصحية قد ازدادت سوءا، فنصح الأم بتحويله على مبنى إدارة القنصلية، فرفضت فانصرف وبعد اثني عشر ساعة تراجعت عن قرارها، إلا إن الولد توفي بعد لحظات من وصوله إلى الدوار[35].

لم يحرم الأمير عبد القادر عامة الناس الجزائريين من الخدمات الاستشفائية للأطباء الأجانب، حيث قام بـ:

-عدم منع الجزائريين من زيارة الأطباء الأجانب لأجل تلقي العلاج.

2-سمح للأطباء الأجانب بحرية التنقل في الأراضي الخاضعة لسلطته، بحيث أصبح الأطباء الذين رافقوا الحملة

الفرنسية على الجزائر يتمتعون بالأمن داخل الوطن الجزائري[36].

كما أن استغاثة الأمير عبد القادر بأهل فجيج لهو شاهد على صدق وفائه لشعبه إثر انتشار مرض الطاعون الذي ضرب بلاد المغرب العربي في سنة 1251هـ/1836م، وإن كان سببا في وفاة الكثير من الناس بسبب اعراضه الخطيرة والمتمثلة في الإسهال الحاد Diarrhée، والقيء وغور العيون Enfoncement des yeux، وبرودة (شلل) الأعضاء refroidissement des membres، حيث قدر عدد الذين راحوا ضحية الكوليرا هذه السنة في مدينة مليانة والمدية، وتلمسان، ومعسكر بعشر السكان، وامتد هذا الطاعون حتى المناطق الصحراوية من البلاد[37].

سار خلفاء الأمير عبد القادر على نهجه إذ لم يمتنعوا من طلب الإغاثة من الأطباء الأجانب، ففي شهر أكتوبر من سنة 1847م طلب خليفة الأمير عبد القادر على الأغواط (محمد الصغير بن عبد الرحمن المعروف أحيانا بأحمد بلحاج: 1841-1847م)، من سلطات الاحتلال الفرنسي طبيبا لعلاج بعض من موظفي إدارته، قد أصيبوا بمرض معدٍ في العيون؛ أبدى الجنرال Mareyماري قائد القسم العسكري للمدية موافقته بإيفاد طبيب إلى المناطق الصحراوية[38].

كما أن راية الدولة الجزائرية في عهد الأمير عبد القادر والتي كانت تحمل صورة كف مبسوطة مطرزة بالذهب لها أكثر من دلالة (فهي اليد الممدودة، المفتوحة، اليد الحامية، التي نجدها في كل مكان ترمز لطرد الأرواح الشريرة وعين الحسود، والعفاريت الخبيثة، تطردها من الأشخاص والأموال)[39].

4/أمثلة ونماذج عن العلاجات الطبية:

1-**أمراض العيون:** كانت أمراض العيون تعالج عن طريق قطرات تغسل العيون.

Les infections oculaires étaient traitées par des collyres

كما كانت تجرى عمليات جراحة على فتيلة البياض المحورية، وعلى الغشاوة الموجودة على قرينة العين.

Ils opéraient les chalazions et même d'écaille d'huitre (les taies qu'ils traitaient ensuite avec de la poudre de perle

ثم معالجتها عن طريق مسحوق حشرة اللؤلؤة وقشرة أو فوقعة المحار، كما كانت حبيبات الجفن تعالج عن طريق شرطها بسكين نحيلة ثم يمسح عليها بقطعة ثوم[40].

Les traitement des granulations de la paupière étaient effilés, puis frottés, rapidement avec une gousse d'ail scarifiées avec un couteau[41].

2-**لدغة الأفاعي السامة:** في حالة لدغة الأفاعي السامة يفتح الجرح بسكين ويمتص الدم من الجرح أو بواسطة محجمة Ventouseثم تولج كميات من الثوم المسحوق داخل الجرح، وتنتهي العملية بتضميد الجرح، وفي **الصحراء** كانت الجراح تضمد بشحم الضب. Uromastix

3-**لسعة العقرب:** لسعة العقرب هي الأخرى كانت تعالج بنفس الطريقة ثم يربط العضو.

4-**الأمراض الجلدية:** كانت تعالج بواسطة مجموعة من الأدوية Une panoplie de remèdes مثلا الأقرع كانت توضع على رأسه قبعة Calotteمحشوة بنبتة عشبية زراعية حبة البازيلا le pois وعند خلعها ينتزع معها الشعر المصاب.

5-وهناك طريقة **لنتف الشعر**تتم عن طريق تغميس الأصبع في القطران، ثم وضعها على الجلد المشعر فيلتصق الشعر بالأصبع ثم ينتزع، ومنها طريقة البترول. بينما الجرب la gale فكان يعالج عن طريق مزيج من الزيت أو الزبدة، والكبريت أو القطران.

6-**طب الأسنان والفم:** كانت تمارس عملية نزع الأسنان في الأرياف من قبل حكماء Guérisseursجوالين، وفي المدينة من قبل الحلاقين والحجامين والختانين barbiersو ذلك باستخدام المحجمة Ventouse أو الختان Circoncision، وكانت الأسنان تقلع بواسطة كلاب الأسنان Duvier، أما أمراض الفم فكانت تعالج بواسطة الماء الممزوج بالخل أو الملح.

كما كانت تعالج روائح الفم الكريهة ببعض الاعشاب الطبية، وفي أغلبها مواد معطرة ومن بينها نذكر: الكزبر Coriandre الصندل santal، الكافور camphre، الغربيد pyrèthre، جذور الجوز racine de noyer، وعود النخل الهندي le bois d'arek.

6-**مرض السفيليس أو داء الزهري:** وهو من الأمراض الخطيرة اذ كان يعالج عن طريق القشاع (من فصيلة الزنبقيات) la salsepareille والتعقيم ببخار أو دخان الزنجفر (سولفور الزئبق الطبيعي) les fumigations cinabre

7-**مرض المفاصل:** يتم علاجه بالدرياس le thapsia

8-**أورام الفم**: les lésions de la bouche والعيون بالشب L'alun والزبدة.

9-**الحمى: تعالج بالقنطربون** la centaurée

10-**التسمم يعالج بزيت الزيتون**[42]

وبخصوص الوصفات الطبية فقد كانت تحضر من قبل الأطباء أنفسهم، وذلك بعد الانتهاء من فحص المريض وتشخيص حالته، أو من قبل الصيادلة les apothicaires الذين كانت لهم محلات داخل المدن، أو خيم بالمناطق الريفية، والتي كانت تحتوي على مواد صيدلانية مرتبة ومصنفة بشكل محكم.

عرض المُؤلف (الباحث) في متن النص مختلف مراحل بحثه حسب البنية المنهجية التي يفرضها الموضوع والتخصص.

5/المواد الصيدلانية[43]

وجدت في عهد دولة الأمير عبد القادر العديد من المواد الصيدلانية ومن بين هذه المواد نذكر:

الكحل	Antimoine
الأنسيون	L'anis
البنج	Jusquiame
الصفينة	La sabine
الأفيون	Opium
القرنفل	Le girofle
الكافور	Camphre
الحرمل	La rue
المسك	Le musc
بابونج	Camomille
الأفسنتين	Absinthe
القنطربون	Centaurée
جوزة الطيب	La muscade
الخزامى	La lavande
حامض النحاس	Sulfate de cuivre
الحلبة الرومية	Le fenugrec
الرهج الأصفر	l'opriment
جوزة القيء	La noix vomique
الصمغ أو الألبان	Benjoin
حصا اللبان	Le romarin
الصبر	Aloès
الخبازي	Mauve
الفشاع	La salsepareille
الزعتر	Le thym
السنا	Le séné
الحلتيت	L'Assa foetide
الدرياس	Le thapsia

الحناء	La hénne
النعنع	La menthe
الذراح	La cantharide

هذا إلى جانب المواد المثيرة للشهوة الجنسية les aphrodisiaques.

خاتمة:

أخيرا ومن خلال هذه الدّراسة التي نرجو أن تكون قد حققت الغرض الذي تهدف إليه، وهو استثارة النقاش حول الموضوع وإثراءه، وكذا تسليط الضوء على أهم المواضيع المهمشة فيما يتعلق بدولة الأمير عبد القادر.

ومن شأن هذا الموضوع فتح مجال البحث ضمن الكتابات والدّراسات الأكاديمية المعاصرة، وذلك إبرازاً لشخصية هذا الرجل الذي ظهر تفوقه في جميع الميادين؛ ولولا المؤامرات والحركات العصيانية ضده، وكثرة خصومه في الداخل والخارج لتحقق على يده مشروع إقامة الدولة الجزائرية.

إنّ الهياكل الصحيّة لدولة الأمير من خلال سياسته التي قام بها حيث استحدث الطرق التقليدية التي كانت شائعة في تلك الفترة، هذا النموذج الصحّي أعطى قيمة لهاته المؤسسة الطبية بمستشفياتها ومراكزها وتكوينها الطبي.

ومهما يكن فقد ساهم الأمير بما لديه من إمكانيات في عصره في الحفاظ والعناية بالجانب الصحّي كجزء من سياسته العامة في تسيير شؤون دولته، فالحالة الصحيّة والمعيشية قبل عصره كانت متردية نظرا لمختلف الأمراض والأوبئة التي فتكت بعشرات الأرواح، ضف إلى ذلك الظروف الطبيعية التي لم تكن رحيمة بالجزائريين.

الملاحق:

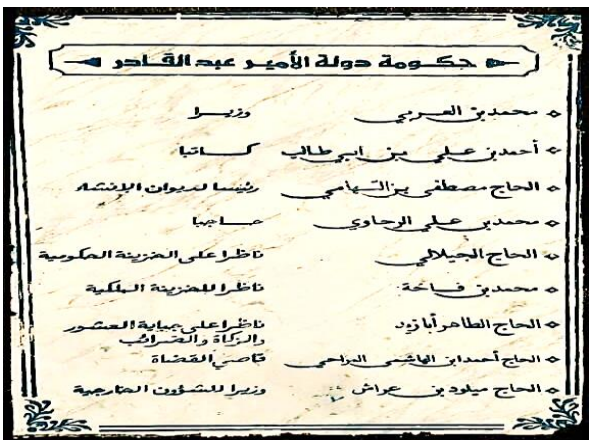

خلفاء الأمير عبد القادر

مقاطعة تلمسان: عاصمتها تلمسان ومرفأها رشقون. ولي عليها محمد البوحميدي الوهراصي

مقاطعة معسكر: عاصمتها ومرفأها أرزيو. ولي عليها محمد بن أبي قريحة الهاجي، وبعد قتله ولي عليها الحاج مصطفى بن أحمد التهامي الذي جمع بين هذا المنصب ومنصب رئيس الديوان في مجلس الشورى الأعلى.

مقاطعة ملیانة: عاصمتها ملیانة ومرفأها شرشال. ولي عليها محي الدين بن علال القليعي ثم أحمد آقا ربه محمد بن علال.

مقاطعة التيطري: عاصمتها المدية. ولي عليها أعلا مصطفى بن محي الدين ثم عزله. ولي مكانه البركاني.

مقاطعة مجانة: عاصمتها سطيف. ولي عليها محمد بن عبد السلام القراي ثم محمد الخروبي القلعي وأخيرا محمد بن عمر اليسوي

مقاطعة الزيبان والصحراء الشرقية: عاصمتها بريج حمزة. ولي عليها أحمد بن سالم الدبيسي.

مقاطعة الصحراء الغربية: عاصمتها الأغواط. ولي عليها قدور بن عبد الباقي

المصدر: صور لوحتين رخاميتين أمام دار الإمارة بمعسكر.

قائمة المصادر والمراجع:

إسماعيل العربي، المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر، الطبعة 2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.

أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1830-1954)، ج5، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1998.

أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 1830-1954، الطبعة الأولى، الجزء السابع، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1998.

أديب حرب، التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر الجزائري 1808- 1847، ط2، ج2، دار الرائد للكتاب، الجزائر، 2004.

الأمير عبد القادر الجزائري، ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، تحقيق وتقديم ممدوح حقي، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، لبنان، (د ت).

بديعة الحسني الجزائري، وما بدلو تبديلا (تفاصيل دقيقة عن جهاد الأمير عبد القادر الجزائري ودولته وهجرته)، الطبعة الأولى، دمشق، 1423هـ/2002م.

ريتو إيتيان، عبد القادر الجزائري، ترجمة: المهندس ميشيل خوري، الطبعة الثانية.الجزائر، 2001.

جوسيب فريجوراس وآخرون، النظم الصحية، ترجمة: تيسير كايد عاصي وآخرون، المركز العربي لتأليف و ترجمة العلوم الصحية، الكويت، 2015.

-**المقالات:**

زايدي عز الدين، الجزائريون والوضعية الصحية الجديدة خلال المرحلة الأولى من الاحتلال، المجلد 7 ، العدد 1، المجلة الجزائرية للبحوث المتوسطية، جوان 2021.

عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج4، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994.

عبد الهادي حسين، الادارة في دولة الامير عبد القادر، مجلة القرطاس، ع7 ، جانفي 2018.

-الكتب الأجنبية:

Charles Henry Cherchill, La vie d'Abdelkader, Alger : S.N.E.D 3eme édit 1981.

13- Ibid.

Marcel Emerit- L'Algérie à l'époque d'Abdelkader, Présentation de René GALISSOT-paris, 2002.

Revue Africaine n 28, année 1984.

Mostefa Khiati , Histoire de la médecine en Algérie De l'antiquité à nos jours Alger ANEP, 2000.

Yvonne , Turin, Affrontements culturel dans l'Algérie coloniale (écoles médecines religion) 1830 - 1880 ,Alger , éditions , Houma 2003.

الهوامش:

[1]- جوسيب فريجوراس وآخرون، النظم الصحية، تر: تيسير كايد عاصي وآخرون، المركز العربي لتأليف وترجمة العلوم الصحية، الكويت، 2015، ص ج.

[2]- زايدي عز الدين، الجزائريون والوضعية الصحية الجديدة خلال المرحلة الأولى من الاحتلال، المجلة الجزائرية للبحوث المتوسطية، المجلد 7، ع 1، جوان 2021، ص ص 159-160.

[3]-عبد الهادي حسين، الادارة في دولة الامير عبد القادر، مجلة القرطاس، ع7، جانفي 2018، ص ص 167-169.

[4]-نفسه.

[5]- محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، شرح وتطبيق ممدوح حقي، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، لبنان، 1964، ص75.

[6] -Mostefa Khiati , Histoire de la médecine en Algérie De l'antiquité à nos jours Alger ANEP, 2000, P 160 -161 .

- إسماعيل العربي، المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر، الطبعة 2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص 228.

[7]- عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج4، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994، ص 74.

[8]- بريتو إيتيان ، عبد القادر الجزائري، ترجمة المهندس ميشيل خوري، الطبعة الثانية، الجزائر، 2001، ص 156.

[9]-Mostefa Khiati, Op cit, p 158.

[10]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1830-1954)، ج5، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1998، ص 311.

[11]- نفسه.

[12]-نفسه.

[13]- نفسه.

[14]- إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص 228.

[15]- Yvonne, Turin, Affrontements culturel dans l'Algérie coloniale (écoles médecines religion) 1830 - 1880 ,Alger , éditions , Houma 2003, p 78.

[16]- أبو القاسم سعد الله، ج 7، ص 228.

[17]- بديعة الحسني الجزائري ومابدلو تبديلا (تفاصيل دقيقة عن جهاد الأمير عبد القادر الجزائري ودولته وهجرته)، الطبعة الأولى، دمشق، 1423هـ/2002م ص 137.

[18]- نفسه، ص 140.

[19]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 1830-1954، الطبعة الأولى، الجزء السابع، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1998، ص 234.

[20]- نفسه، ص 225.

[21]- نفسه، ص 226.

[22]- نفسه، ص 234.

[23]- أديب حرب، التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر الجزائري 1808-1847، ط2، ج2، دار الرائد للكتاب، الجزائر، 2004، ص 84.

[24]- الأمير عبد القادر الجزائري، ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، تحقيق وتقديم ممدوح حقي، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، لبنان، (د. ت)، ص 94.

[25]- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص، 223

[26]-Charles Henry Cherchill, La vie d'Abdelkader, Alger : S.N.E.D 3eme édit 1981, p159

[27]-Ibid.p226.

[28]-Revue Africaine n 28, année 1984, p220

26-بعث البركاني لفرحات بن سعيد هدايا يحملها إلي بوشارب-أحد مساعديه- تتمثل في خاتم من ذهب وسرج مطرز، وبندقية ثمينة، وضرب له موعدا في مسجد المدينة ليلبسه برنوس الخلافة على إقليم الزيبان خلفا لبن عزوز، فأوقعه بذلك في الأسر، وسلمه للأمير عبد القادر بتاقدمت بعد ثمانية أيام من إلقاء القبض عليه.

[30]-Ibid.

[31]-Ibid.

[32] محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، شرح وتعليق ممدوح حقي، دار اليقظة العربية للنشر والتأليف والترجمة والنشر، بيروت، لبنان 1964، ص 63.

[33] أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق الجزاء الخامس، ص500.

[34]-Marcel Emerit- L'Algérie à l'époque d'Abdelkader Présentation de René GALISSOT-paris, 2002, p159

[35]-Ibid., p160.

[36]-Yvonne Turin.Op.Cit.P77.

[37]-Revue Africaine, N 57, Année 1913, p255

[38]-Yvonne Turin.Op.Cit.p99.

39- -عبد الرحمن محمد الجيلالي، المرجع السابق، ص 74.

[40]-Mostefa Khiati ،Op.cit. P156.

[41]-Ibid p 157.

[42] Ibid 157.

[43] - Ibid p 157.